الأستاذ والدوافع

بقلم : ابراهيم اصلان

ومر وقت طويل على استيقاظ الاستاذ من نومه . ومع ذلك ، فانه لم يكن قد انتهى من مواصلة احلامه بعد . يتقلب على الفراش ويتمرغ . ويضرب الهواء بساقيه .. ويصفق.. ويضحك . ويتحدث مشيرا بيديه .. ويتمسح .. ويتجهم .

وعندما تنبه الى أن عينا «ام محمد» ترقبانه خلال فرجة الباب ، كان منهمكا فيما يشبه الرد على تحية جماهير .. غفيرة . ولم يؤخذ ، بل استمر فى حركته ، مطورا اياها بشكل تدريجى الى ان اتخذت طابع من يطرد عن وجهه شيئا .. كالذباب . وهكذا .. الى ان انتهى الامر باستكانة اعضائه وسمة الوقار والتجهم المعهودين على وجهه. ثم نادى بلا مبالاة . وبدون أن ينظر الى الباب الذى لم تكن المراة قد غادرته بعد .

ـ يا ام محمد .. ام محمد ..

ودخلت ام محمد : صباح الخير

كان ممددا على ظهره وذراعاه الهزيلتان تستريحان على بطنه الرجراجة الهائلة التى كانت تتمايل وتتبعج فى كل اتجاه ، وبدون ان يحرك راسه المستدير الذى يمتد حتى عنقه بطيات سميكة . مال بعينيه الراكدتين وهو يقول : ـ ازيك .. يا ام محمد.

وتململت المراة الضامرة داخل جلبابها وهى ترد فى ريبة : ـ ازيك انت .

وتحركت الى نهاية الغرفة المستطيلة. فانقلب هو على بطنه وتتبعها فى انزعاج. ولكنها تناولت كوبا . واثناء خروجها خيل له ان نظرتها كانت تحمل شيئا من اللوم .

(ام محمد عاقلة ... كنت اظنها ستفتح النافذة ... لقد فتحتها بالامس..!!.. كان يجب على ان امنعها .. حقيقة .. لماذا لم امنعها ؟... زمان .. كانت نوافذ الفيلا تظل مغلقة طيلة اسبوع فى انتظار ذلك اليوم .. دكتور يذهب .. ليحضر آخر ...

حالة طوارىء .. استعداد تام ... مفروض ..)

وارتفع رنين الملعقة داخل الكوب أثناء دخول ام محمد .. وبنفس اللهجة الخافتة المتمهلة : ـ « ايه ده .. ياام محمد .. ؟ »

قالت : ـ « دى كباية لمون .. »

تناول الكوب فى عجالة ووضعه على المنضدة بجوار الفراش . واوشك ان يسألها شيئا عندما امتدت يدها المعروقة وهى تقول فى ارتباك وبدون ان تنظر اليه : ـ « خد .. »

قال وهو يسبغ نظراته على قبضتها الصغيرة : ـ ايه ده .. يا ام محمد ؟.»

ـ « ده .. ده .. ده سكر .. »

ـ سكر .. ليه .. انت مش حليتى اللمون .. يا ام محمد ؟

فمسحت وجهها المتغضن بكفها الخالى .

ـ خد بس .. دا سكر نبات ... امال .. اصل لقيته فى الدرج .. ماهو بتاعك .. »

انهمك فى الضحك فجاة .. واخذ يتفحص كفيه بسرعة .. ويتأمل اظافره .. ويبحث عن شىء بين ساقيه .

ـ هىء .. امبارح .. هىء هىء .. الله .. يا خبر .. ما تخليه .. هىء . ماتنسيش المكوجى .. هىء هىء .»

وتمادى ، الى أن اغرق ، واستلقى مرة اخرى على ظهره ، ووضعت هى الكيس الصغير على بطنه . ولما خرجت اقلع عن ضحكه ، واخذ يرقب الباب فى حذر .

(ام محمد طيبة ... ليمون ... وسكر نبات ... شىء مفيد فعلا للحنجرة .. زمان .. لم اكن افكر فى استعمال مثل هذه الاشياء .. عشرات الادوية .. استفسارات ... معجبات .. افواج .. لم تصلنى خطابات منذ فترة طويلة .. اى والله افواج ..)

ولفه الصمت ، وفكر فى شىء : ـ يا ام محمد .. ام محمد .. »

ودخلت .

ـ قولى لى يا ام محمد ... هو النهارده ايه فى الايام .. »

ـ النهاردة ؟ .. الخميس .. ما انت عارف .. »

استطرد قبل ان تنهى جملتها : ـ الخميس ؟.. الله .. دا على كده تبقى الحفلة النهاردة .. »

ـ « آه .. النهارده ان شاءالله .. »

ـ طيب ابقى روحى .. يا ام محمد .. للمكوجى ..

ـ حاضر .. انا رايحاله حالا .. حاضر ..

(ام محمد غلبانة .. سأشترى لها الطرحة البيضاء التى طالما طلبتها منى . سأشتريها اليوم .. ولكن الحفل سينتهى متأخرا ... سيكون دورى بلا شك ... بعد ان ينتهى الاخرون .. هىء .. نجوم اليوم .. تذكرونى .. كنت احدد الساعة التى سأغنى فيها . طبعا .. كنت اغنى وحدى .. ولكننا

اليوم كثيرون.. انا.. انهم لم يسألونى لانهم يعلمون اننى لم اعد مشغولا .. وقتى ملكى الآن ... دبروه لى ... لا أفلام .. لا رحلات .. لا مشاكل مخرجين ومنتجين .. لا احاديث .. سأسدد الايجار .. لا مهنئين ..)

وانزلق وهو يجر معه ملاءة السرير .. واتجه الى الدولاب الصغير ... وبصق بجواره .. وشب على اصابع قدميه وتناول العود ... وعاد للفراش .. واخذ يضبطه .. ويضع اذنه عليه مختبرا .. بينما أصابعه تعبث بالأوتار وتبعث بالانغام . ودخلت أم محمد لاهثة

ـ المكوجى .. حايجيب البدلة .. والقميص .. كمان شويه ..

(أم محمد عجوز .. هى التى تبقت .. والعود .. الارث الوحيد .. كل شىء سيعود كما كان .. لقد اعددت العدة لذلك ـ وأخفت ضحكته عينيه عندما تذكر حال افراد الفرقة الموسيقية عندما كان يدربهم على لحنه الجديد ـ هىء هىء .. ذعروا .. كانوا يظنوننى تجمدت .. كبعضهم .. قديم ... فاتهم اننى فى تلك الفترة الطويلة كنت أرقب التطور الفنى واقيمه.. وادرس مشاعر الجماهير ... أذواقهم .. انا اعرف الآن مايعجبهم وما لايعجبهم أيضا .. سأبدا بلحن من الحانى القديمة.. ثم اعقبه بلحنى الجديد ... سيرون .. المفاجأة .. هىء .. معذورون ـ وخيل له ان الصفحات الفنية فى الايام التالية قد أصبحت ولا حديث لها الا عن ذلك التطور المدهش للفنان الكبير، واستعادته للمجد بلحن مخدوم، ملائم لروح العصر وطبيعة الجماهير ـ ولكنى سأحدد علاقاتى مع الناس .. الاصدقاء .. آه .. الكلاب ..

وامام المرآة ، كان يمر بأصابعه متحسسا الاخاديد والقنوات التى احتفرتها الايام ، متأملا الشيب وقد غزا ما تبقى من شعر رأسه « هذه أشياء لا يلاحظها الجمهور .. هىء.. مفاجأة .. سيكونون مشغولين بما هو أهم من ذلك ... يا أم محمد ... أم محمد ... »

وعندما دخلت ، القت نظرة سريعة على الفراش ، ولما راته يستحلب شيئا فى فمه ، قاومت رغبتها فى اظهار اغتباطها وابتعد عنها.. واخذ يدور حول نفسه. وبينما هى تبتسم فى خيلاء ، كانت تفكر ، وتتحاشى النظر الى بطنه الضخمة التى استأثرت بقامته القصيرة ولم تترك لساقيه الا ذلك النزر اليسير .

كانت المغنية الحسناء على خشبة المسرح .. تتلوى وتمط فى اغنيتها .. وتجعل لكل كلمة من كلماتها .. ذيلا.. طويلا .. حارقا ، وتتأوه .. والصيحات المنتشية تقاطعها فى الحاح .. وتطلب المزيد .. والاستاذ يطل براسه من فرجة فى ستار جانبى .. ويرقب كل ذلك .. ويفرك كفيه .. ويجرى بين الكواليس طالبا من افراد الفرقة ـ للمرة الالف ـ الاستعداد .. شارحا لهم الامر ، طالبا من الكورس اعادة ترديد الكلمات التى سوف يرددونها وراءه . وزاد اضطرابه . واخذ يجرى ويمسح عرقه عندما ادرك من صيحات الجماهير ان المغنية قد انتهت من دورها ..

واخذ افراد الفرقة الموسيقية اماكنهم .

وارتفع صوت المذيع الداخلى ـ سيداتى .. آنساتى .. سادتى .. الان .. وبعد غيبة طويلة .. يعود نجم الغناء الشرقى .. الذى طالما اطربنا .. الاستاذ ـ وصرخ وهو يقول ـ عبد الحميد معتوق ..

وتقدم الاستاذ .. بخطى ثابتة .. رافعا يده ملوحا للجماهير .. بهدوء وروية .. رامقا الصالة الكبيرة بعينين واثقتين . وتوقف امام مكبر الصوت ، وتهيأ افراد الفرقة ... وانتظروا اشارته ... ولكنه اكتشف ان سماعة المكبر اعلى من مستوى راسه ، فمد يده فى حركة عفوية وجذبها الى أسفل، ولكنها لم تستجب . ولم يفصح مظهره عن اى اضطراب . ومال بجانب وجهه واخذ يغمز بعينه الى عازف ـ القانون الذى لم يفهم قصده .. فأخذ يضغط ثانية على السماعة ويجذبها بكلتا يديه. بلا جدوى .. ولما هرع عامل الاضاءة لمعالجة الأمر ، تراجع هو وقد ارتسمت على وجهه المتقع بسمة امتنان عميقة.

لحظ على الفور أن موجات التصفيق كانت تتكسر فى اماكن وتركد فى اخرى. حتى انه تمكن بعد التفرس الشديد من تحديد تلك الاماكن التى كانت تعرب عن استحسانها . وذلك بعد ان انتهى من المقطع **الذى** قال فى نهايته ..

« من امتى كان الندم بيرجع اللى راح » ..

« وازاى حايقدر يطير اللى مالوهش جناح » ..

وبالرغم من شعوره ببعض الاستياء عندما تنبه الى أن هناك أكثر من اثنين يتبادلان الاحايث وبالرغم من أن احد المستمعين لم ينهرهم ـ كما كان يحدث ـ فانه كان يعلق على لحنه التالى اهمية خاصة ، ولما تنبه الى انه قد انشغل اثناء عزف الفاصل الموسيقى بين المقاطع فى اشياء كان من شانها ان تخرجه من جو كلمات الاغنية وتؤثر على اهمية تعبيره عما تحمل من معان ، اخذ يطرد عن راسه هذه الخواطر ، وشغلته هذه المطاردة عن اى شىء آخر . لذلك، اخذ يعيد المقطع الواحد اكثر من عشر مرات ، وفى نهاية كل مرة .. كان يتضح له انه لم يكن يدرى على وجه الدقة ان كان قد قام بالاداء كما يجب .. وهل هو نسى بعض الكلمات فعلا .. أم لا . ولكنه عندما لاحظ أن موجة الملل لم تترك حتى ذلك الركن المتعاطف .. آثر الانتهاء . وصفقت بعض الأكف .

تراجع الى الخلف خطوات ، ونظر الى الجماهير المحتشدة فى صمت ، ورفع حاجبيه الى اعلى ـ وخلع على وجهه ابتسامة عريضة ، واخذ يهز راسه ـ كان واضحا انه يضمر شيئا ـ ثم استدار بوجهه الى الخلف ، وفى حركة رشيقة .. اشار بيده . وعلى الفور ، ارتفعت الانغام . وتقدم بهدوء .. ولم يكن قد تخلى عن ابتسامته بعد . وامسك بعامود مكبر الصوت الحديدى .. وضمه الى صدره ... وانساب صوته ..

يا حبيبى تعالى فى حضنى ..

تعالى نروح السيما ...

اللحن ، من تلك الالحان الراقصة.

حتى أن الاستاذ عبدالحميد كان قد بدأ فى الاهتزاز والتمايل والاندماج . معبرا عن معانى الكلمات التى كان يرددها . تعبيرا حركيا .. بالوجه واليدين والجسم كله .. يدفع حبيبه كلتا يديه فى دلال .. ثم يعود لضمه وتحسسه فى حنان ، ويعقص رقبته معاتبا ..

خلاص أنا زعلان منك ..

ما دام انت يا روحى لئيمة ...

القاعة انقلبت .. انفجرت .. صفير وصراخ وتهليل وضحكات مجنونة . وكان هناك بعض الذين اشتدت عليهم الوطأة .. يرقصون .. ويرقصون ويضربون الأقربين ، والجميع فى ثورتهم الضاحكة الصاخبة ، يتقبلون اللكمات والرفصات .. بترحاب .. اما هو ، فقد بدا واضحا ان هذه الانفجارات المدوية قد اكسبته شيئا معينا .. يقبل ويدبر ويدور . ويحاول القفز فيجانبه التوفيق .. ويجرى يمينا .. ويسارا ، وينقض بسرعة على مكبر الصوت .

خايفة من ماما قولى لها ..

انك حتروحى تذاكرى ..

ويتقهقر لاهثا . وكانها الموجة العاتية المنطلقة هى التى تعبث به وتطوحه على هذا النحو ، وقد بدا للعيان أنه قد فقد السيطرة نهائيا على بطنه ، كانت كانها على وشك الاندلاق . والجماهير التى استوت على الاقدام يشتد تدافعها وتكالبها . والاطفال فوق اكتاف الكبار يحتضنون الرءوس ويتلفتون فى شىء من الفرح وكثير من الدهشة ، وكان البعض يصرخ ، والبعض يبكى فى صمت ، وافراد الفرقة الموسيقية توقفوا عن العزف تماما من زمن واخذوا يتابعون مايحدث من فوق مقاعدهم ، ويتاملون الاستاذ فى رعب وقد جحظت عيونهم عندما تعثر فى الاسلاك الكهربائية الكثيرة المتشابكة على خشبة المسرح ، التى ارتطم بها . وحاول القيام .. فتعثر ثانية .. واخيرا .. افلح فى خلع قدميه من بين الاسلاك . وعندما وقف كان الصمت والوجوم يخيمان على المكان ..

ثبت فى مكانه مقطوع النفس .. منفرج الساقين .. مفتوح الفم .. ناظرا الى لاشىء .. بعينين كانهما سؤالان تقادم عليهما العهد ..

وعلى البعد .. فى آخر الدنيا .. كانت هناك دوامة صغيرة .. تدور فى صمت .. ولا تنى عن الاقتراب والاتساع .. وتقترب .. وتقترب .. وتزداد عمقا .. وتنساح فيها العيون .. آلاف العيون .. والاشياء .. وتتسع .. وتفور . وتقترب .. يا الله .. عين حقيقية .. كبيرة . تملأ عليه الوجود .. وتتأمله .. وتتحرك أهدابها الطويلة .. وتلتمع .. كان بحيرة صافية من الدموع تغمرها .. ومن الجفن الاجعد .. العالى .. انزلقت أم محمد .. فوق المحجر العسلى الكبير .. صغيرة .. هابطة .. بطرحة بيضاء .. وجلباب أخضر .. واشارت له بشىء فى يدها .. قبل أن تختفى .. وأخذ ينحدر .. وينحدر .. ويستجمع الاشياء .. يتمناها .. وعندما أوشك أن يصيح مناديا ..

اسدلت العين استارها ..